فصول فى التصوف الاسلامى وفتوحات ابن العربى

التصوف والصوفية فى الاسلام

للأستاذ خليل هنداوى

وإن كانت « الابيقورية » ذهبت مذهبا متطرفا في المادة فان الصوفية أيضا قد تحت نفس هذا المذهب فى شططها وغلوها فى الروح والنفس وجوهر الله .

يقول الاستاذ « فريد وجدى » فى دائرة المعارف : إن التصوف هو مذهب كان الغرض منه تصفية القلب عن غير الله والصعود بالروح إلى عالم التقديس باخلاص العبودية للخالق والتجرد عما سواه . وهذا قديم كقدم النزعة التى أوجدته ، فان الانسان منذ ألوف من السنين أدرك أن خلف هذه الغلف الجسدانية سراً مكنوناً ، فنشأ هذا المذهب فى كل أمة راقية ، ولبس شكلا مناسباً لعقولها وأفكارها ، وهو معروف فى الهند والصين منذ ألوف من السنين ، وله عند الهنديين أساليب شديدة على النفس ، ولكنه لما وجد تحت ظل الاسلام وأحيط بأدب القرآن دخل فى دور جديد » . وقد اختلف العلماء والمتصوفون أنفسهم فى حقيقة تاريخ مذهب التصوف وإلى أين يذهب عهده . على أن عهده يرجع إلى قديم الزمن وإن لم يكن معروفا قبل بهذا الاسم . وقد اختلق العرب اشتقاقا لهذه الكلمة واختلفوا فى وضعها ، فنهم من ذهب مذهب القائل : « ان أول من انفرد فى الاسلام بخدمة الله عند المسجد الحرام رجل يقال له « صوفة » واسمه الغوث بن مر فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه فى الانقطاع إلى الله ، فسموا بالصوفية » ، وقال الزبير : قال أبو عبيدة : « وصوفة وصوفان يقال لكل من ولى من البيت شيئاً من غير أهله . أوقام بشىء من أمر المناسك » . وقد ذهب قوم إلى أن التصوف منسوب إلى أهل الصُّفة فى الانقطاع إلى الله وملازمة الفقر ، وهم المعروفون فى الاسلام بأهل الصفة . والتصوف عندهم يقصد به رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الفضيلة من الزهد والحلم والصبر والاخلاص . ومنهم من نسب الصوفية إلى لباس الصوف . فقيل فى أحدهم صوفى ، وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف ، ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به ولكن أضيفوا اليه لكونه ظاهر الحال .

ويقول الشيخ الشعرانى فى كتابه الطبقات : « إن طريق الصوفية مقيدة بالكتاب والسنة ، وإنها مبنية على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء ، وإنها لا تكون مذمومة إن خالفت صريح القرآن أو السنة أو الاجماع لا غير ، أما اذا لم تخالف فغاية الكلام أنه فهم أوتيه رجل مسلم ، فمن شاء فليعمل به ومن شاء تركه . والتصوف هو عبارة عن علم انقدح فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل والكتاب والسنة . فكل من عمل بها انقدح له من ذلك علوم وأدب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها . فالتصوف انما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا عمله من العلل وحظوظ النفس كما أن علم المعانى والبيان زبدة علم النحو . ولا يدرك أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة إلا من تبحر فى علم الشريعة حتى بلغ إلى النهاية . وكيف تخرج علومهم عن الشريعة والشريعة هى وصلتهم إلى الله عز وجل فى كل لحظة؟ وقد اجتمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر فى طريق الله إلا من تبحر فى علم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها ، وتبحر فى لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك ، فكل صوفى فقيه ولا عكس .

وقد ورد فصل يحسن ذكره فى هذا الموضع للدلالة على الروح الصوفية التى كانت تسود عقول أصحابها من كتاب « اللمع فى التصوف [1] » ، قال الشيخ ابو نصر : سألنى سائل عن علم التصوف ومذاهب الصوفية وزعم أن الناس اختلفوا فى ذلك فمنهم من يغلو فى تفضيله ورفعه فوق مرتبته ، ومنهم من

(١) طبع فى مطبعة « بريل » فى مدينة « ليدن » سنة ١٩١٤ لصاحبه أبى نصر عبد الله بن على السراج الطوسي سنة ٦٤٠ وقد اعتنى بنسخه وتصحيحه « نيكلسون »

يخرجه عن حد المعقول والتحصيل ، ومنهم من يرى أن ذلك ضرب من اللهو واللعب وقلة المبالاة بالجهل ، ومنهم من ينسب ذلك إلى التقوى والتقشف ، وليس التصوف فى تنوق الكلام واللباس وغير ذلك ، ومنهم من يسرف فى الطعن وقبح المقال فيهم حتى ينسبهم الى الزندقة والضلالة ، وليس من مذهبهم النزول على الرخص وطلب التأويلات والميل إلى الترفه والسعات ، وركوب الشهوات لأن ذلك تهاون بالدين ، وانما مذهبهم التمسك بالأولى والأتم فى أمر الدين . والصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع ولم يترسموا برسم من الاحوال المحمودة والاخلاق الشريفة .

ما هو التصوف ؟ سأل سائل محمد بن على القصاب وهو أستاذ الجنيد الصوفى الشهير . فقال : أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام . وقال الجنيد : التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة . وفى الحقيقة أن هذه الكلمة هى التى يتخذها الصوفيون أساساً لتصوفهم فى المشرق كان أم فى المغرب . ويدخل موضوع التصوف المبنى على هذه القاعدة فى عداد المذاهب الفلسفية . فالانسان إذا أراد أن يكون مع الله بلا علاقة فهو محتاج ولا ريب إلى معرفة الله وتحديد علاقاته مع الانسان وعلاقات الانسان معه . ولا ريب أن هذه الموضوعات هى سبيل مظلمة من سبل الفلسفة التى يستضىء الفيلسوف عقله لانارتها ، والصوفى يعتمد توكله وإيمانه .

وكلمة التصوف جاءت إلى العربية من اليونانية « صوفيا Sofia » وهى تعنى إغلاق الفم والصمت . وليس ببعيد هذا ، لأن التصوف جاء إلى العرب ونشأ بينهم بعد هجرتهم من الجزيرة ، وتعرفهم إلى مدنيات الأمم المجاورة لهم كالفرس واليونان وكانت فكرة التصوف عند هؤلاء شائعة

والأرجح أن يكون التصوف مذهباً مستقلا له شأنه . ينظر صاحب هذا المذهب إلى الكون نظر أصحاب المذاهب الأخرى له . وكما أن المشرع الحكيم يضع من عنده القوانين للكون ويحدد كل شىء بالنسبة اليه بنظام ، وكما أن الفيلسوف قد يجحد كل ما يصنعه غيره ويناقش الطبيعة بلغته الفلسفية ومنطقه الخاص ، فالصوفى كذلك له من مذهبه ما يجعله مستقلا تمام الاستقلال عن المذاهب الأخرى : ينظر إلى الكون بعينه المجسدة ، ويتفهم الفضائل حسبما يوحى اليه مذهبه . ولا بأس بأن نقول كما قال « فيكتور كوزان » : إن التصوف هو مذهب من المذاهب الفلسفية ؛ وإنما يستعين على الظهور بالدين ؛ وهو إن لم يكن غنياً بمنطقه وقواعده وارتقائه على العقل فهو يتضمن قالب المذهب الفلسفى ولا يحدد إلا نقطة نظر ية ضيقة المجال . وقد غلب هذا المذهب على المذاهب الطبيعية ، وعم فى سائر الديانات التى ارتكزت على الكتب السماوية والتعاليم البشرية .

على أن هذا لم يمنع قول القائلين : إن الصوفية ليست مذهباً يعتنقه المرء ، يأخذ بعقائده وتقاليده ، فانها أدنى إلى الطبائع فى بعض النفوس منها إلى قواعد مذهب مقرر . وأنت ترى كثيرين من الناس يعيشون عيشة الصوفية فى زهدهم وقناعتهم وما هم بالصوفيين .

حكم العلماء على الصوفية

نشأ المذهب الصوفى شأن كل مذهب يكون الاخلاص رائده ، ثم يتسرب اليه التحيل والهدى ، ولم يعرف التاريخ مذهباً داجى فيه أصحابه مثلما عرف من التصوف . فقد دخل فيه المخلص والزنديق والنشيط والبليد . فالتصوف أسه الزهد والتظاهر بالفقر وكراهية الدنيا . وكم من أناس حبب لهم العيش الرخاء والتوانى فى السعى ، فأووا إلى هذه المذاهب التى تعلى من قيمتهم وتظاهروا بالتصوف . وقديماً كان الناس يتسابقون إلى إيواء الصوفى وإطعامه ، والمبالغة فى إكرامه . وهكذا كانوا ينتقلون فى عيشهم من بادرة إلى بادرة معتمدين على الظاهرة الصوفية ، وليس فى قلوبهم إلا الغل والنفاق . ولابن تيمية فتوى جليلة فى الصوفية وحال أقسامهم ، فقد قال بعد أن شرح موضع الصوفية من العلماء : « والصواب أنهم مجتهدون فى طاعة الله كما اجتهد غيرهم ، ففيهم السابق السابق بحسب اجتهاده ، وفيهم من قد يجتهد فيخطىء ، وفيهم من

يذنب فيتوب أو لا يتوب . وقد انتسبت إليهم طائفة من صوفية الحقائق الذين اعتنقوا مذهب الصوفية باخلاص قلب ، ووفاء سريرة ، وصوفية الأرزاق ، وصوفية الرسم ممن لا يغنون فتيلا . والصوفية كانوا ولم يزالوا من جملة الزهاد ، ولكنهم انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال . واتسموا بسمات خاصة بهم . والتصوف طريقة بدؤها الزهد الكلى كما قدمنا فى كل متاع الدنيا ؛ ثم ترخص المنتسبون اليها - لما حرموا من ملذة الدنيا فجعل البعض ذلك لهم حيلة - بالسماع والرقص ، فمال اليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد ، ومال اليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب .

ويبدو ان هذا الضرب من التحيل لم يبخس حق قيمة المتصوفين الحقيقيين . وقد قال القشيرى فى رسالة : « لم يكن عصر فى مدة الاسلام وفيه شيخ من هذه الطائفة إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء قد استسلموا لذلك الشيخ وتواضعوا له وتباركوا به . فقد أذعن الامام الشافعى لشيبان الراعى حين طلب الامام أحمد بن حنبل أن يسأله عمن نسى صلاة لا يدرى أى صلاة هى ؟ وإذعان أحمد لشيبان كذلك حين قال لشيبان « هذا رجل غفل عن الله فجزاؤه أن يؤدب » . وكذلك إذعان الامام أحمد لأبى حمزة البغدادى واعتقاده فيه حين كان يرسل اليه دقائق المسائل ويقول : ما تقول فى هذا يا صوفى ؟ وكان يروى أن الامام أحمد كان يحث ابنه على الاجتماع بصوفية زمانه ، ويقول إنهم بلغوا فى الاخلاص مقاماً لم يبلغه

وقد أوى كثير منهم إلى ضروب من الكرامات زعموا أنها خاصة لا تصدر إلا عنهم ، يريدون من وراء ذلك أن الله يسخر قوات الطبيعة والأشياء لهم ، ولكن هذا النوع من هذه الكرامات لم يرق معشر العلماء فاختلفوا فى أحكامها . والناس فى إنكارها أقسام ، منهم من ينكرها مطلقاً ، ومنهم من يقول ان هذه الكرامات تشبه السحر من أهل السيميا ، وينصح للانسان بعدم صدقهم وعدم تصديقه لهم . وقد أفتوا بتكفيرهم كما أفتوا بتكفير الغزالى وحرق كتابه الاحياء . ولكن البعض من أئمة هذا المذهب لم يجعلوا هذه الكرامات قواعد راسخة للصوفية لا يكون صادقاً إلا من يؤتاها ويأتى بها

وقد قال أبو يزيد البسطامى — واضع الله وراء جبته : « لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود . ومن ترك التقشف ولزوم الجماعة وحضور الجنائز وعيادة المرضى وتلاوة القرآن وادعى بهذا الشان فهو مبتدع ، وفى هذا دلالة واضحة على أن من يدخل فى هذا المذهب ويعتنق مبادئه ثم يطرح عنه قواعد الشريعة المشيد عليها هو مبتدع مختلق ، يحترف الصوفية فراراً من كلفات الدين ومشقات العيش

وخلاصة الأمر أن التصوف تقلب كثيراً وتحرر كثيراً وطرأ عليه ما يطرأ على سائر المذاهب عادة ، ولكن التصوف الحقيق ظل محترما فى عيون الناس وقلوب الناس . وليس بوسعنا اخراج الحكم عليها من باب أحكام العلماء لاختلاف فتاواهم فيها وإنما علينا أن نستعرض مبادئها وقواعدها ونرى ما يلائم منهاجه منها سنة الحياة وما يباين ، وهنالك القول الفصل

خليل هنداوى

انتظروا قريبا
السيد عمر مكرم
مع الاستاذ
محمد فريد أبو حديد